الكنائس والأديرة القبطية في الخطط التوفيقية لعلي مبارك

على باشا .

الخطط التوفيقية الجديدة لمصر والقاهرة ومدنها وبلادها القديمة والشهيرة / تأليف على مبارك . - القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ٢٠٠٨ .

مج ٢٠ ؛ ٢٧سم .

تدمك ٧- ٦٦٠- ٤٢٠- ٩٧٧- ٩٧٨

بقلم

ماجد كامل فهمى

كبير باحثين بدار الكتب

صدر حديثا ضمن مهرجان القراءة للجميع - الصادر عن الهيئة المصرية العامة للكتاب- موسوعة «الخطط التوفيقية» لعلي باشا مبارك (١٨٢٤ - ١٨٩٣م) ؛ وهي موسوعة ضخمة صدرت لأول مرة عام ١٨٩٢م في عشرين جزءا من الحجم الكبير ، اهتم فيها علي مبارك بعمل أطلس كامل متكامل لمدن مصر وقراها منذ أقدم العصور حتي وقت كتابة الموسوعة . ونهج المؤلف فيها نهجا علميا اعتمد فيه على كثير من المصادر والمراجع القديمة والحديثة العربية وغير العربية ، كما اعتمد على كثير من العلوم المساعدة لفهم التاريخ مثل الوثائق والآثار والنقوش ؛ وسوف نركز علي بعض ما كتبه في موسوعته عن الأقباط وكنائسهم وأديرتهم وأعيادهم وعاداتهم وتقاليدهم وذلك باعتبارهم جزءاً أصيلاً من نسيج هذا الوطن الواحد الذي يجمعنا جميعا .

ففي الجزء الأول منها وفي صفحة ٢٣٤ وتحت عنوان «فرق قبط مصر وأعيادهم» كتب يقول : (لما دخل المسلمون مصر كانت مشحونة بالنصارى ، وكانوا قسمين متباينين في أجناسهم وعقائدهم أحدهما أهل الدولة ؛ وكلهم روم من جند صاحب القسطنينية ملك الروم . والقسم الثاني عامة أهل مصر ؛ ويقال لهم القبط ؛ وكلهم يعاقبة[1] ؛ فمنهم كتاب المملكة ومنهم التجار والباعة ، ومنهم الأساقفة والقسوس ونحوهم) ويستمر علي مبارك في وصف أعياد الأقباط نقلا عن المقريزي : «إن للنصاري سبع صلوات وصيامهم خمسين يوما[2] ؛

ماجد كامل ـــ

الثاني والأربعون منه عيد الشعانين ، وهو اليوم الذي نزل فيه المسيح من الجبل ودخل بيت المقدس ، وبعده بأربعة أيام عيد الفصح ؛ وهو اليوم الذي خرج فيه وقومه من مصر ؛ وبعده بثلاثة أيام عيد القيامة ؛ وهو اليوم الذي خرج فيه المسيح من القبر[٣] ؛ وبعده بثمانية أيام عيد التجديد وهو اليوم الذي ظهر فيه المسيح لتلامذته بعد خروجه من القبر ، وبعده بثمانية وثلاثين يوما عيد السلاق ؛ وهو اليوم الذي صعد فيه المسيح إلى السماء[٤])

وفي الجزء الثاني من الموسوعة وفي ص ١٢٤ وتحت عنوان (دير البنات)[٥] كتب يقول : «وفي هذه الحارة إلي وقتنا هذا الدير ذكره المقريزي وسماه دير البنات ؛ وهو موجود إلي الآن وتزوره نساء المسلمين كثيرا ، وفيه بئر ماء معينة يعتقدون في مائها الشفاء[٦] ، وبه مقصورة علي ضريح ، وبالمقصورة طاقة صغيرة تضع النساء أولادهن المرضي بها[٧] ،(ويزعمون أن فعل بالولد ذلك يحصل له الشفاء من المرض الذي به) .

وفي الجزء السادس وفي ص ٢٠٨ يكتب عن كنيسة بحارة زويلة في شارع بين السورين ، وفي ص ٢٠٩ يكتب عن كنيسة القبط من شارع الدرب الواسع الموصل لكلوت بك ويطلق عليها «الكنيسة الكبري البطريركية الكاتدرائية» ولقد تم الانتهاء من بنائها في عام ١٥١٦م للشهداء الموافق عام ١٨٠٠ ميلادية في عهد البابا مرقس الثامن البابا رقم ١٠٨ في سلسلة باباوات الكرازة المرقسية في أيام رياسة الأمير الشهير جرجس أفندي الجوهري رئيس الكتبة المصريين . ذلك أن البطريرك المومىء إليه كان ساكنا أولا بالقلاية البطريركية بحارة الروم السفلي ، وسبب بناء هذه الكاتدرائية كما يروي في الخطط في ص ٢١١ أن المعلم إبراهيم الجوهري - رئيس كتبة القطر المصري- اتفق أن أخت السلطان كانت قد قدمت من القسطنطينية بغرض الحج فباشر المعلم إبراهيم الجوهري خدمتها بنفسه في الذهاب والعودة ؛ فلما أرادت مكافأته علي خدمته التمس منها المساعدة في إصدار فرمان سلطاني ببناء كنيسة جديدة بالأزبكية حيث مستقر سكنه ، ولكنه توفي في ٢٥ بشنس عام ١٥١١م للشهداء ، فشرع أخوه المعلم جرجس الجوهري في استكمال البناء حتي افتتحت رسميا في عام ١٨٠٠م كما ذكرنا سابقا[٨] وكان أول من رسم فيها بطريركا هو البابا بطرس الشهير ببطرس الجاولي البطريرك ١٠٩ في عام ١٨١٠م[٩] .

وفي ص ٢١٦ من نفس الجزء يكتب عن كنيسة السيدة العذراء بحارة زويلة فيقول عنها : «إن الأقباط كانوا يحتفلون فيها في يوم عيد الصليب الموافق ١٧ توت من كل سنة ، فكان الكهنة والشمامسة يخرجون من الكنيسة بالملابس الرسمية حاملين الإنجيل والمباخر والصلبان حتي يصلون إلي قنطرة الخليج القريبة من الحارة ثم يعودون مرة أخري ؛ ولقد كانت هذه الكنيسة هي المقر الرسمي للكرسي البابوي قبل انتقالها إلي حارة الروم ؛ ويلي هذه الكنيسة دير للراهبات باسم السيدة العذراء «مازال عامرا بالراهبات حتي الآن» .

وفي ص ٢٢٠ يكتب عن كنيسة السيدة العذراء حارة الروم[١٠] التي أصبحت المقر البابوي

في عهد البابا متاوس الرابع البطريرك ال ١٠٢ واستمرت به ثم انتقلت إلي الكنيسة المرقسية في عهد البابا مرقس الثامن كما سبق ذكره ، وفي ص ٢٢٣ من نفس الجزء يكتب عن كنيسة حارة السقايين ؛ وهي الكنيسة التي سعي البابا كيرلس الرابع إلي بنائها في عهد الخديوي سعيد وذلك عام ١٨٨١م ، كما فتح بها مدرسة للصبيان وأخري للبنات . وفي ص ٢٣٠ يكتب عن دير الخندق المعروف حاليا بدير الأنبا رويس «المقر الرسمي للبطريرك حاليا كما سبق الذكر» الكنيسة الثانية بالخندق وهي المعروفة حاليا بدير الملاك البحري ، وتقام به احتفالية كبري في أعياد الملاك ميخائيل يومي ١٢ بؤونة ؛ ١٢ هاتور من كل عام ؛ وفي ص ٢٣٦ يكتب عن دير مارمينا العجائبي بظاهر القاهرة من الجهة القبلية «وهي المعروفة حاليا بكنيسة مارمينا فم الخليج» وقد ذكرها المقريزي في خططه . واختتم المؤلف الجزء السادس من خططه باستكمال الجدول الخاص بالآباء البطاركة الذي وضعه المقريزي ووقف عند البابا غبريال الثالث البطريرك ال٧٧ ، ثم يستكمل الجدول حتي يصل إلي البابا كيرلس الخامس البابا١١٢ وقت تأليف موسوعته «عام ١٨٨٢م»[١١] .

الجزء السابع من الخطط خصصه بالكامل عن مدينة الإسكندرية ؛ فيذكر كرازة القديس مارمرقس الرسول بالإسكندرية ، ثم يتكلم عن عصر الشهداء الذي بلغ ذروته في عصر الامبراطور دقلديانوس ، وجاء من بعده الامبراطور قسطنتين الكبير الذي نشر مرسوم التسامح الديني عام ٣١٣ م ، ثم يذكر أريوس في ص ٢٣ وانعقاد مجمع نيقية بسببه في عام ٣٢٥م وحكمت بنفيه الي خارج مدينة الإسكندرية ، وفي ص ١٩٦ يكتب عن كنائس الإسكندرية فيذكر من الكنائس القبطية كنيسة واحدة هي «الكنيسة القبطية ؛ في حارة كنيسة القبط»[١٢] .

وفي الجزء الثامن من الخطط ؛ وفي الفصل الخاص بمدينة «أتريب» كتب يقول : «وأتريب ، وكان بها دير للعذراء البتول يعرف بدير ماري مريم علي شط النيل بقرب بنها ، وعيده في حادي عشر بؤونة[١٣] ؛ وذكر الشابسطي أن حمامة بيضاء تأتي في ذلك العيد فتدخل المذبح لايدرون من أين جاءت ولا يرونها إلا مثل ذلك اليوم وقد تلاشي أمر هذا الدير» .

وفي نفس الجزء وفي ص ١١٧ كتب عن مدينة أخميم فقال : «وبها آثار ومصانع من بنيان القبط ، وكنائس معمورة بالمعاهدين من نصاري القبط» . وفي ص ١٢٠ وكان بها في زمن دخول الفرنساوية جملة من النصاري الأقباط عددهم قريب من ألفي نفس ؛ وكان فيها كنيستان عظيمتان احداهما كنيسة سوتير ؛ أي المخلص من العذاب ، والثانية كنيسة ماري ميخائيل وكان من عوائد أهلها النصاري في أحد الشعانين وقت إشهار الصلوات الموسمية أنهم يخرجون من الكنيستين مع القسيسين والقمامصة في هيئة محفل حاملين المباخر والعطر الذكي والصلبان وكتب الأناجيل والشموع العظيمة موقدة ، ويقفون أمام بيت القاضي برهة من الزمن يتلون صحفا من الإنجيل ، ويغنون ببعض شطرات منظمة تتضمن مدحة ، ثم يقفون

علي باب كل واحد من أمراء الإسلام وأعيانهم يفعلون كما فعلوا أمام بيت القاضي .

على البعد من أخميم بمسيرة نصف مرحلة دير حسن البناء يسمي دير السبعة جبال وسط سبعة أودية تحدق به من جميع جهاته جبال شامخة ؛ ولذا لم تكن الشمس تشرق عليه إلا قبل شروقها الحقيقي بساعتين ، وتغرب عنه قبل غروبها الحقيقي بساعتين أيضا ، ..... وكان خارج ذلك الدير عين ماء تظللها شجرة صفصاف ؛ ... وكان على البعد منه بمسيرة ثلاث ساعات دير آخر يعرف بدير قرقاس منحوت في رأس الجبل يصعد إليه بواسطة نقور في الجلمود تسع بعض الرجل وكان في سفح هذا الدير المعلق عين ماء عذب ..... وكان في الجهة الشرقية من إخميم دير صبورة نسبة إلي قبيلة من العربان نزلت هناك -ولم يكن إذ ذاك عامرا- وفي الجبل مغارات كثيرة ، وقد نفي إلي هذه المدينة بطرك قسطنين «يقصد القسطنينية» واسمه نسطور فأقام فيها سبع سنين ومات فدفن بها»[١٤] .

وعند حديثه عن قرية الدرنكة بأسيوط ؛ يذكر في ص ١٤٣ عنها «وفي غربها بسفح الجبل قبور نصارى أسيوط وغيرها من البلاد المجاورة ، وقبلي تلك المقابر ثلاثة ديور «أديرة» أحدهما يسمي دير العذراء التحتاني ، والآخر دير العذراء الفوقاني ، والثالث دير ساويرس» .

وفي ص ١٤٤ من نفس الجزء يكتب عن إدفا فيقول عنها «وفيها كنيسة قديمة ونصارى بكثرة وفي بعض الكتب القديمةأن كنيستها باسم «ماري بخوم»[١٥] الذي كان راهبا في زمن الأب شنودة وكان يطعم رهبانه الحمص المصلوق «وفي خطط المقريزي ذكر عنه انه كان لهذا الراهب أبو الشركة يعني انه كان يربي الرهبان فيجعل لكل راهبين معلما ، وكان لا يمكن أحدا من الرهبان من إدخال الخمر ولا اللحم إلي ديره ويأمر بالصوم إلي آخر التاسعة «إي الساعة الثالثة ظهرا»)

تنتقل بعد ذلك إلي الجزء الحادي عشر ؛ وهو الجزء الخاص بحرف «الدال» فيذكر في تعريف كلمة (الدير) في ص ١٧٧ فيقول «ويوجد من هذا الاسم عدة قري بالديار المصرية ؛ والدير في الأصل خان النصاري وجمعه أديار وصاحبه دياري ، ويقال لمن رأس أصحابه رأس الدير» ثم أطلق إسم الدير علي مجموعة من القري نذكر منها (دير السنقورية وهو قبلي البهنسا بنحو ساعة ، دير الجرنوس ببني مزار ، دير البرشا ويعرف أيضا بدير أبي حنس ، دير البياضية بملوي ، دير البلاص بقنا ، دير أسنا ، دير تاسا .... الخ) .

ويذكر بعد ذلك ديري المحرق[١٦] ودير الجنادلة .

وفي الجزء الثاني عشر من الخطط ؛ وهو علي حرف (السين) وفي ص١٩٧ منه . يذكر عن مدينة السويس قوله : «وفي جنوبها بنحو ثمان ساعات دير مار انطونيوس[١٧] ؛ وهو دير مشيد حصين متين البنيان ، وبخارجه عين عذبة نابعة من الصخر ، وفي جنوبه علي شط البحر الأحمر دير آحر علي نسقه يعرف بدير بولس[١٨] ، بنيا في القرن الرابع من الميلاد في وقت كانت القلوب فيه شغوفة بحب

الديانة . اختار كثير من الناس أرض مصر للتعبد حتي بلغ عدد الأديرة في الديار المصرية خمسة آلاف ديراً ؛ سكنها نحو سبعين ألف راهب وعشرين ألف راهبة» .

وفي الجزء الرابع عشر ؛ وفي ص ٢٧٩ يكتب عن أديرة وكنائس الفيوم ؛ فيذكر منها دير القلمون ، ودير النقلون ، وبالفيوم كنائس كثيرة ، نذكر منها كنيسة الشهيد مرقوريوس أبو سيفين(١٩) ، وكنيسة العذراء مريم .

وفي الجزء الخامس عشر وفي ص ١٢٨ يكتب عن مريوط ؛ وكان بقربها في الصحراء كنيسة باسم مينا (٢٠) . وفي الجزء السادس عشر وفي ص ٢٤٢ يكتب عن دير الميمون ؛ وهو المقر الأصلي للأنبا انطونيوس قبل انتقاله إلي منطقة القلزم البحر الأحمر كما سبق الذكر .

وفي الجزء السابع عشر وابتداء من ص ١٣٤ يكتب عن وادي هبيب ؛ وهو الوادي الذي يقع فيه حاليا منطقة أديرة وادي النطرون(٢١) . وفي ص١٣٧ يذكر انها في القديم كان يوجد بها مائة دير ؛ والأديرة العامرة منها حاليا هي دير ابومقار ، دير الأنبا بيشوي ، دير السيدة العذراء «السريان» دير السيدة العذراء «البراموس» .

وفي ص ١٤٧ يكتب عن دير الزجاج ؛ وهو قريب من الإسكندرية(٢٢) بالقرب من دمنهور حاليا .

وفي النهاية يبقي الشكر للهيئة المصرية العامة للكتاب علي تفضلها بطباعة هذا السفر النفيس في طبعة شعبية ضمن مهرجان القراءة للجميع .

الهوامش والتعليقات:

١- كلمة يعاقبة ترجع إلي القديس يعقوب البرادعي أسقف نصيبين ؛ وهو الذي اهتم برسامة أكبر عدد ممكن من الأساقفة أصحاب الإيمان بالطبيعة الواحدة للسيد المسيح .

٢- الصوم الكبير للأقباط مدته خمسة وخمسين يوما ؛ وهو أقدس الأصوام القبطية وأطولها .

٣- يعرف حاليا ب«أحد توما» وهو اليوم الذي أظهر فيه السيد المسيح لتوما جراحاته حتى يصدق ويؤمن بموته وقيامته .

٤- عيد صعود السيد المسيح إلي السماء يأتي في اليوم الأربعين من عيد القيامة مباشرة .

٥- يعرف حاليا ب «دير الأمير تادرس للراهبات» وهو مازال عامرا .

٦- هذه البئر تنسب إلي القديس أبانوفر السائح ؛ وهو من قديسي الكنيسة العظام ، ويعتقد أنه سكن في هذه المنطقة وشرب من هذه البئر .

٧- هذه المقصورة تضم جزءاً من رفات الشهيد العظيم الأمير تادرس ؛ وهذا هو السبب في قدسيتها .

٨- استمرت الكنيسة المرقسية بكلوت بك المقر الرسمي للبطريرك القبطي حتى انتقلت إلي المقر الحالي بدير الأنبا رويس بالعباسية في عهد البابا شنودة البطريرك الحالي الـ ١١٧ أطال الله حياته ومتعه بالصحة والعافية وكان قد تم افتتاحها رسميا في عهد سلفه البابا كيرلس السادس في يوم ٢٥ يونية ١٩٦٨م .

ماجد كامل ـــ

٩- وأخر من رسم فيها هو البابا شنودة الثالث البطريرك الحالي في ١٤ نوفمبر ١٩٧١م ؛ حيث انتقل الكرسي البابوي بعد ذلك إلي دير الأنبا رويس كما سبق ذكره .

١٠- وتعرف حاليا بكنيسة السيدة العذراء المغيثة بحارة الروم .

١١- واستكمالا للجدول الآباء البطاركة نذكر أن البابا كيرلس الخامس توفي في ٧ اغسطس ١٩٢٧م ؛ وجاء بعده البابا يؤنس التاسع عشر ال ١١٣ (١٩٢٨-١٩٤٢م) ، ثم البابا مكاريوس الثالث ال١١٤ (١٩٤٤-١٩٤٥م) ، ثم البابا يوساب الثاني ال١١٥ (١٩٤٦ -١٩٥٦م) ، ثم البابا كيرلس السادس ال ١١٦ (١٩٥٩- ١٩٧١م) وأخيرا البابا شنودة الثالث ال١١٧ (١٩٧١ - أطال الله حياته ومتعه بالصحة والعافية) .

١٢- لهذه الكنيسة قدسية خاصة عند الأقباط ؛ فهى أقدم كنيسة في مصر ؛ وهي أول مقر بابوي للكرازة المرقسية ، وتعرف حاليا بالكنيسة المرقسية بمدينة الإسكندرية .

١٣- صحة التاريخ ٢١ بؤونة وليس ١١ كما ذكر في الخطط ؛ وهو عيد تكريس أول كنيسة علي اسم السيدة العذراء في مدينة فيلبي ، ولهذا السبب أصبح يوم ٢١ من كل شهر قبطي تذكار شهري ثابت للسيدة العذراء .

١٤- في التقليد القبطي أن مجمع أفسس المنعقد عام ٤٣١ م قد حكم على نسطور بالحرم والنفي إلي مدينة أخميم بصعيد مصر ؛ وسبب ذلك أن أهل مدينة أخميم مشهورين بقوة الإيمان والفهم السليم للعقيدة فلن يستطيع نسطور التأثير عليهم ببدعته ، فمات هناك ودفن جثمانه بتل عرف بتل نسطور ، وكان من عادة أهل هذه المدينة أنهم يأتون بالقمامة من كل مكان ويلقونها فوق هذا التل كنوع من الاحتقار لبدعة نسطور .

١٥- يعرفه الأقباط باسم القديس العظيم الأنبا باخوميس والملقب بأبو الشركة «هو القديس الذي وضع نظم وقواعد الرهبنة الجماعية ؛ فقام بتنظيم قواعد المعيشة ونظام الصلاة والصوم ووقت الدرس والعقوبات .... الخ ، وعلي هدي هذه القواعد صارت الرهبنة في أوروبا علي يد القديس بندكت الذي أعجب بهذه النظم فقام بنقلها إلي الأديرة الأوروبية ومنها إلي العالم كله فيما بعد . وتذكار وفاته يقع في ١٤ بشنس حسب التقويم القبطي» .

١٦- للدير المحرق قدسية خاصة عند الأقباط ؛ فهو آخر المحطات الرسمية لرحلة العائلة إلى أرض مصر ، فمنه جاء الملاك إلي يوسف النجار وأمره بالعودة إلي أرض فلسطين لأنه قد مات الذين يطلبون نفس الصبي ، وهو أطول مكان مكثت به العائلة المقدسة ، ويعتبره كثير من الأقباط بمثابة القدس الثانية .

١٧- القديس العظيم الأنبا انطونيوس يعرف بلقب «أب جميع الرهبان» ولد في بلدة قمن العروس بني سويف من أسرة غنية ، كان يملك ٣٠٠ فداناً من أجود أنواع الأراضي ، وذات يوم وهو يصلي في الكنيسة سمع الآية التي تقول : «إن أردت أن تكون كاملا فاذهب وبع كل مالك واعط الفقراء فيكون لك

كنزا في السماء» (مت ١٩ :٢١) فخرج وباع كل أراضيه ووزع ثمنها علي الفقراء ، وذهب ليتعبد في الصحراء . تذكار وفاته تقع في ٢٢ طوبة من الشهر القبطي .

١٨ - النطق القبطي المتداول للاسم هو «الأنبا بولا أول السواح» ذات يوم دخل في نزاع مع أخيه حول الميراث فاحتكما للقاضي ، وفيما هما سائران لمحا جنازة لواحد من أغنى أغنياء البلد وقد مات وخرج من الدنيا صفر اليدين فاستوعب الأنبا بولا الدرس وقرر ترك الميراث كله وذهب للترهب في الصحراء بالبحر الأحمر . تذكار وفاته تقع في ٢ أمشير من الشهر القبطي .

١٩- لم يدرك علي مبارك أشهر قديسي الفيوم حاليا ؛ وهو القديس الانبا أبرآم ، وقد كتب ليدر فصلا كاملا عنه في في كتابه «أبناء الفراعنة المحدثين THE Modern Sons of the Pharos» وقد ترجم الكتاب أخيرا إلي اللغة العربية وصدر عن دار الشروق ؛ أما تاريخ وفاة الانبا أبرآم فهو ١٠ يونية ١٩١٤ .

٢٠- كنيسة ودير مارمينا سميت هكذا علي اسم الشهيد المصري مارمينا . وتذكار استشهاده يقع في ١٥ هاتور الموافق ٢٤ نوفمبر ؛ وقد بنيت مدينة رخامية كاملة حول قبره وكانت مزارا عالميا شهيرا ، كما توجد قوارير من الماء عليها رسم مارمينا توجد في معظم متاحف العالم ؛ وقد أعاد العالم الألماني «كاوفمان» اكتشاف آثار المدينة في عام ١٩٠٥م ، كما شيد البابا الراحل كيرلس السادس ديرا كبيرا بالقرب من المدينة الأثرية ، ولهذا الدير حاليا عند الأقباط شعبية كبيرة جدا .

٢١ - منطقة وادي النطرون عرفت في التاريخ ب «منطقة شيهيت» وهي كلمة قبطية معناها «ميزان القلوب» وسميت هكذا لأن فيها يزن الراهب قلبه ويختبر حياته في ضوء تعاليم الإنجيل .

٢٢- في القرن الرابع ظهرت مدرستان كبيرتان في الرهبنة ؛ المدرسة الأولي أسسها القديس مقاريوس الكبير في برية شيهيت «وادي النطرون حاليا» وبها الأديرة الأربعة المذكورة حاليا ، المدرسة الثانية أسسها الأنبا أمونيوس وتعرف بمنطقة «كيليا» أو «القلالي» ومنها جاءت كلمة «القلاية» التي يتعبد بها الراهب ، ومن كلمة «كيليا» اليونانية جاءت الكلمة الإنجليزية « Cell» بمعني خلية ؛ ودير الزجاج يعتقد انه من آثار منطقة «كيليا» .